

ميكانيزمات التعذيب النفسية الاستعمارية:

قراءة في تصورات فانون

د. بهتان عبد القادر
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة قلمة، الجزائر

ملخص

فرانس فانون مارتينيكي المولد، وجزائري الكفاح، وواحد من المثقفين الذين ساهموا في تشرح علاقة مستعمر- مستعمر مثلما فهم علاقة طبيب - مريض. انتقد من حاول تغييب الجزائريين والجزائريات من خلال التهميش، الحرمان، والإذلال، والتجهيل، والتغريب، والتعذيب، والقتل حتى. لقد أدرك (فانون) بأن المستعمر بهذه السلوكات، سيجعل الجزائري ينمي أشكالاً للوجود، وستمنحه قيمة المثلى؛ السيادة، والتعلق بالوجود من خلال المواجهة والأخذ؛ أخذ حقوقه بالقوة.

الكلمات المفتاحية: ميكانيزمات نفسية استعمارية، سيكولوجية المستعمر، معاناة، فانون.

Résumé

Frantz Fanon est un martiniquais de naissance, révolutionnaire algérien, et un combattant de la cause anticoloniale. Il fait partie des intellectuels qui ont décrit avec précision la relation "colonisateur – colonisé" et celle "du médecin-malade".

Il refuse et critique toute attitude qui condamne les Algériens, à occuper la position que le stéréotype colonial leur assignent par la marginalisation, la privation, la torture,

l'humiliation, l'ignorance, voire la mort. Fanon a évoqué que ces comportements du colonisateur vont générer des formes d'existence chez le colonisé: valeurs idéales, attachement à l'identité et au sol par la lutte, et indépendance.

Mot clés: Fanon, mécanismes psychiques du colonisateur, psychologie du colonisateur, souffrance.

مقدمة :

إنّ التعذيب النفسي أشد وطأة على الفرد من التعذيب الجسمي. فإذا كان الأخير يؤدي إلى الموت السريع، فالأول يميّت الفرد ببطء. لقد أثار المثقف عقول المستغلين فأعطى تمثّلات عن المستعمر. استعمار مشوّه للإنسانية، مستغل للأرض، وللآخر، وطامس لوجوده، ومشعب لحاجياته الحيوانية بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، ومشوّه لثقافة الشعوب وعاداتهم وتقاليدهم بهدف ضرب هويتهم ومحاولة تطويعها. وحاول تثبيط عقل المواطن ضدّ التمسك بهويته، والحراك في كلّ جنبات السياسية، والثقافة، والتعليم، والدفاع، وجعل من المعاناة عنوانا له للصدّ عن الشعور بالذات. وهناك من وصفه (سيزار، 2016، ص 19) بـ"العملية الشيئية" أو "التشييء"، أي تجريد الإنسان من إنسانيته، وجعله موضوعا شيئيا دون اعتبار.

فرانس فانون المارتينيكي المولد، والجزائري الموطن والكفاح، واحد أيضا من المثقفين الذين ساهموا في تشريح علاقة مستعمر - مستعمر مثلما فهم علاقة طبيب - مريض. انتقد من حاول تغييب الجزائريين والجزائريات من خلال التهميش، الحرمان والتعذيب، والإذلال، والتجهيل والتغريب والقتل حتّى. لكنّه أدرك بأن المستعمر بهذه السلوكات، سينمي للجزائري أشكالاً للوجود تمنحه قيمة المثلى؛ السيادة، والتعلّق بالحضور من خلال المواجهة والأخذ؛ أخذ حقوقه بالقوة.

في هذا الإطار سنتطرق إلى مساهمات المثقف الثوري "فانون"، وكيف ساهمت في إثبات مستور المحتلّ الغاشم، والكشف عن سيكولوجية التعذيب، والقمع، والميكانيزمات الداعية إلى ذلك.

1- إشكالية

إنّ الثورة التحريرية من صنيع الفكر الجزائري؛ الأمازيغي العربي الإسلامي. هذه الثقافة مهّدت إلى بزوغ قاعدة فكرية من شأنها ولّدت بصفة حتمية رجالا ونساء لا يؤمنون إلاّ بفكر التحرّر من البطش، والاستبداد، والتفرّق،... ويناشدون الوحدة والحرية والاستقلال للوطن والمواطن، وحتىّ للآخر. بل وأصبحت الحرية من عوامل الهوية الوطنية.

الثورة إذن لا يمكن لها أن تكون إلاّ بدافع الثقافة التحرّرية، لأنّها تدافع عن الحق وتصف المستعمر للجزائر في أبغض وجه، كما جاء على لسان فانون: "تعذيب الجزائر ليس بحادث ولم يكن خطأ. فالاستعمار لا يفهم شيئا من غير إمكانية التعذيب والاعتصاب والقمع". ويضيف بأن: "كل تبرير من قبل المستعمر لبطشه وقمعه، لا يمكن وصفه إلاّ بالفضيحة والتناقض".

في ورقتنا البحثية هذه، نريد طرح إحدى القضايا التي تصف المستعمر في أقبح صورته، ألا وهي الشخصية المرضية والشاذة، والمتمثلة في التعذيب والقمع. هذه الصورة الموحشة وصفها كل مثقف عايش تلك الفترة، وعبر مختلف الشهادات (روايات، شعر، أوصور أوغيره). ولعلّ من بين هؤلاء الذين مجدّوا الثورة نجد فرانس فانون، واحد من المثقفين والأطباء المحدثين في الطب النفسي والعقلي، والذي قد يجهله أغلب الجيل الحالي. فيا ترى، من تكون هذه الشخصية، وكيف كانت تصوراتها حول المستعمر وطغيانه المسلط على كل ما هو جزائري؟

2- فرانس فانون

ولد "فانون" في المارتينيك بتاريخ 1925/07/20، هو كاتب سياسي ومكافح ضد الاستعمار لاسيما نشاطه إبان الثورة التحريرية. ويعتبر من المنظرين الذين اختصوا في الوصف السيكاتري للأمراض الناتجة عن الاستعمار. يصفه "سبير" Arnaud Spire بـ: "طبيب عقلي مارتينيكي وجزائري وطني". أي أنّ فانون لم يخف توجهاته السياسية تحت العقلنة السيكاترية، ولم يختزل نشاطه المهني في كفاحه السياسي. (Aime,2006, pp 37-42)

لقد كافح لأجل استقلال الشعب الجزائري المضطهد تحت ويل الاستعمار الفرنسي. لحق بالثورة في ربيع 1957 بعدما نظّر للعنف الجسمي والثقافي الناجم عن كيد الاستعمار البغيض. تمّ نفيه إلى فرنسا، ونظّمت فدرالية المغتربين التابعة لجهة التحرير الوطني مع Francis Jeanson إرساله إلى تونس. ليصبح عضواً ممثلاً في الحكومة المؤقتة، وقلّد منصب سفير لهذه الحكومة في "أكرا بـ" "غانا" وقد كانت لديه آمالاً وتصورات حول توحيد مقاومة إفريقية مشتركة ضدّ الإمبريالية الاستعمارية.

2 - 1. مرضه

أصابه المرض (سرطان الدم) في نهاية ديسمبر 1960، تمّ إرساله إلى موسكو للعلاج. يستمر في نشاطه السياسي وتقربّه من جيش الحدود حيث ساهم في إعطاء دروس لضباط جيش التحرير. وهناك أتمّ كتابة كتابه: «معدّبوا الأرض Les Damnés de la terre»، يزداد مرضه ليرسل على إثر ذلك إلى الولايات المتحدة لإتمام العلاج. (Douville, 2006, pp43-64) توفي بواشنطن في 1961/12/06 ودفن في أرض الكفاح تبعاً لوصاية أوصى بها.

2 - 2. معاناته العنصرية

ترعرع في الثقافة الفرنسية سواء من ناحية التكوين التعليمي أوحتّى من ناحية معاشته وشعوره بالميز العنصري. بطبيعة الحال في مجتمع لا يرى الذات السوداء اللون إلاّ في جانبها الدوني. نتيجة هذه التجربة أصدر مؤلّفه المعنون بـ: «Peau noire, masques blancs» يشير من خلاله إلى تحسيس الآخر ببشرته السوداء وبغطرسة الرجل الأبيض. بل وأكثر من ذلك؛ معاناة الشعوب، سيما الشعوب الإفريقية (الجزائري) من سلطة العبودية التي خضع لها في القرن العشرين. إذن، مكانة الإنسان الأسود تفرض المعاناة، والعنصرية بصفة آلية.

قدّم فانون وصفاً كاملاً للسياق الذي كان ينتمي إليه؛ قدّم معطيات نفسية تنظّم علاقات المستعمرين والعنصريين، ومن جهة أخرى قدّم تحليلاً للعنف السياسي السائد والعنف الناتج كردّة فعل. هو الطبيب الذي يصف الوصفات الطبية، وبالمقابل تجاربه الحياتية والعلمية جعلته يصف معادلة:

أسود = ضحية = معاناة. (Aime,2006, pp 38-39)

عانى فانون ويلات التمييز العنصري. هذه المعاناة كانت على ما يبدو قد خلقت له الكثير من المشاكل بينه وبين ذاته، سيما فيما تعلق بتقدير الآخرين له كإنسان، لكنه حدّد بأنّ هذا السلوك يتماشى مع ذهنية المستعمر. يقول فانون في إحدى كتاباته: «لا أطلب سوى تقديري من خلال رغبتى» *Peau noire, masques blancs*. هنا نرى موقف فانون، كان واضحا تجاه مرضاه، بغض النظر عن أصولهم. كان يهتم بالمرضى وبمحيطة لمعرفة ما أصابه. ولو أنّ الدراسة السيكاترية تتطلّب ذلك.

لقد كانت صيحة فانون صرخة ضدّ الظلم والاستبداد. أراد تحرير إنسانية الإنسان المسلوّبة. بحيث أعطى للثورة الجزائرية، كما أعطته هذه الأخيرة ما أراد؛ فرصة مواجهة هذا الطغيان وهو في أوج عطاءاته. بل إنّ المتتبع لسيرته الحياتية، سيجدّه متعلّق بالحرية والمساواة. فكلّما تطلّع إليهما، وجد فرنسا تسعى إلى خرق ما تطلّع إليه: عايش التمييز العنصري وتبعاته، وشارك في محاربة النازية، وعندما رجع إلى موطنه وجد فرنسا متعنّنة ومقلّلة لشأن المارتينيكيين، والجزائريين وأدارت ظهرها لكل من أعطاهم يد العون في محاربة النازية. لقد رجع المستعمر إلى تسليط التعذيب. ساهم هذا الأمر في نفوره، فلجأ إلى متابعة الدّراسة. فهذا السلوك قاوم المستعمر من خلال التعليم. لأنّ من بين أساليب المستعمر التجهيل والتنكيل.

3 - 2 - دراسته

درس الطب في فرنسا (ليون) Lyon مدة سبع سنوات، وقد واجه مثله مثل باقي المغتربين رموز ومؤسسات الغرب حيث اجتاح كل الحدود والتناقضات السياسية للمعاناة والكرهية والتهميش.

أنهى رسالته في حدود عشر سنوات (1951 - 1961) وخاض في مضمار السياسة بعدما فهم أنّ الفعل التعبيري هو فعل ذاتي بامتياز، والذي بواسطته نمتلك العالم وكذلك التاريخ. ولهذا أطلق فانون العنان لذاته في الكتابة واهتم بالقضية الجزائرية التي رأى فيها

متنفسه الأخير الذي يعبر من خلالها عن حقيقة ما يجول بداخله بفعل تراكمات عاشها وعاشها في خارج وداخل الوطن الصّال. (Beneduce,2012,pp 273-284).

2 - 4. عمله

في رسالة له وجهها إلى "سنغور" L. S. Senghor طالبا منه منصب عمل كطبيب بالسينغال، إلا أنه لم يتلق أي رد في هذا الخصوص. ولكن تمّ تعيينه بالمستشفى السيكاتري "جوانفيل" Joinville والمعروف باسمه اليوم في مدينة البليدة. يستقيل من هذا المنصب سنة 1956 ويتمّ نفيه من الجزائر في بداية 1957 وهو الأمر الذي جعله يستقر بتونس.

في بداية الخمسينيات، كانت المستشفيات وبالأخص المصّحات العقلية عبارة عن سجون، تظّم ألف وخمس مائة إلى ألفي سرير. المشاهد لها لا يمكنه تصورها بأنّها فضاءات علاجية. المرضى يجولونها كعمّال، والمرّضين عبارة عن حراس يعطون الأوامر. بالإضافة إلى انعدام الأدوية، مع العلم أنّ أول دواء (Largactil) تمّ استخدامه في هذه المصّحات كان بعد سنة 1954. (2006, p40).

تميّز فانون بالعمل الأخلاقي. انصّب عمله على السيكاترية الاجتماعية، أوبالأحرى أخذ بعين الاعتبار الواسطين الاجتماعي والعائلي للمرضى. في هذا الصدد، اختار العلاج الموجّه والمرتكز على التخلّص من المعاناة دون تمييز بين التركيز على ثقافة المفحوص أو أصله: "استطباب الشخص يطرح كاختيار مقصود للطموح في مواجهة الواقع الإنساني". إنّه يصف الطبّ السيكاتري على أنّه عبارة عن: "تقنية طبية تهدف إلى إرجاع قدرة الفرد على عدم الشعور بالغرابة في الوسط الذي ينتمي إليه". (Aime,2006, pp 237-284).

لقد تجلّت نظريات فانون الطبية والثقافية والسياسية والاجتماعية في الميدان العيادي السيكاتري. سيما التعذيب.

3- نظريات فانون السيكاثرية والعيادية في الجزائر

لم يكن هناك شيء اسمه الطب السيكاثري قبل 1932 في الجزائر إلا بعد مجيء " بورو " Antoine Porot حيث تمّ توظيف ثلاثة مراكز سيكاثرية بعد قانون 10 أوت 1934 في العاصمة، قسنطينة وهران، ثمّ لحق فتح مركز البلدية بعد إصدار القانون المنظم للعمل السيكاثري في 30 جوان 1938.

التحق فانون بمستشفى البلدية، وانتقد، وكذّب مذكّرات " بورو " وطالبه (1938) Sutter، حيث رفض تمام الرفض ادعاء مفاده أنّ الجزائري يتّسم بالكذب، وأنّه بدائي بسبب خلل في جهازهم العصبي المركزي (الدماغ)، ويضيفان العنصرية على دراستهما البيولوجية على حساب المرض العقلي، كما ذكرته أليس شرقي (A. Cherki). والنتيجة ميولات هؤلاء السّكان إلى العنف، الكذب، والاندفاع إلى الجريمة، وعدم النضج والقساوة الأشياء التي تحرمه من منافع الحضارة الأوروبية. (2006)

لقد أكّد فانون بأنّ هكذا أوصاف، هي شكل من أشكال المعاناة الموجودة والتي لا لبس فيها. ويرى بأنّه من الضروري على الأطباء الشعور بحجم هذا العنف الاستعماري. ولا يتمّ ذلك إلاّ بالنزوح عن الذاتية والاقتراب من الموضوعية، والابتعاد عن التسيير الاستعماري، والاقتراب أكثر من أخلاقيات المهنة، خصوصا مع مرضى لا يحتاجون إلاّ للعلاج.

العلاج هو الالتزام ضدّ كلّ شيء يمّس كيان الآخر في فضاء اجتماعي أوسياسي معطى. وبالمقابل طرح فانون في كتابه "المعدّبون في الأرض" مفهوما للشخصية. ويضيف بأنّ شخصية المستعمّر لا يمكن اختزالها في شخصية قابلة للاستغلال أوللسيطرة. في هذا السياق يريد فانون إعطاء متانة لصورة الآخر، ولتمكينه من التحدث والتعبير. وبالتالي تمكين العلاج المؤسساتي على أكمل وجه. ولوأنّه قد عبّر عن صعوبة شفاء المستعمّر في ظلّ واقع اجتماعي من طبيعة استعمارية. ولهذا نجده يتساءل عن ماهية العملية العلاجية في جزائر مستعمرة، والعنصرية الاجتماعية، والثقافية، والطقسية تأخذ ذروتها بامتياز، أو ما

يعبر عنه بـ: «الاستعمار غير المسلح». (2006) هذا الأخير الذي خلف إرثا لن ترضى عنه البشرية إلى يوم الدين.

4- المعاناة المفروضة من المستعمر

الحتمية الاستعمارية أن تفرض قوة متواصلة ومعززة بواسطة الإدارة العسكرية والبوليسية. وأبالأحرى فرض العنف والحرب أوالموت المعنوي والمادي. والعنف الاستعماري هوالعدوانية في أبشع صورها، وبالنسبة لـ "فانون" يريد أن يفسر مفهوم العنف في العلاقة العلاجية من خلال: "العلاقة مع الطبيب التي هي علاقة علاج، أما مع المستعمر فتكمن في التجريح، والتجهيل، والتكيبيل، والتعذيب، والشقاوة، والضرب، والنفي، والقتل" عكس الذي يتعاطى العلاج، والتربية، والتعليم، والتغذية، والأجر...". (Mbembe,2007, pp37-55)

في هذا السياق، يقول أحد الضباط الفرنسيين (النقيب Estoup) عن التعذيب: «في اللغة العسكرية، نقول "القيام بالاستعلام"، وفي اللغة السياسية نسميه: "تسليط الضغط"، وفي أدبيات اللغة نقول: "تعذيب"».

يضيف آخر (Pouget): «أثناء الحرب، الاستخدام الأمثل للعنف ليس بالمطلق أوبالبيسط، بل يكمن في المبهم والمتناقض بالنسبة لصورة الفرد... بل إن التعذيب سلاح يستخدم ضد ثقافة السكان الأصليين...» (Pouget , cité par Bozarslan, 2008, pp 171-189) المسلطة على الشعب الجزائري مستمدة من العصور الوسطى والمعاصرة. كما يصفه جلّ المثقفون العرب والمسلمون، أوكما يصفه أهل الرأي العقلاني والموضوعي، مثل Marnia Lazreg والتي تعرّفه: "كفعل تحليلي يبرّره المستعمر تحت طائلة نظرية الحرب الشاملة، وبأنه شيء محتوم مفروض من قبل المستعمر الفرنسي الذي لا يأخذ بعين الاعتبار الأخلاق، والمبادئ الإنسانية، والحضارية التي يتميّر بها كل مجتمع" بالنسبة لفانون، التعذيب المسلط من قبل المستعمر على هذا الشعب هوالشّر الذي لا بد منه، والوسيلة السياسية المحتومة. وهو كذلك جهاز أوأداة الترهيب التي تمّ توسيعها على شعب أعزل(فانون، 1970، ص 40)، ويصفه أيضا (التعذيب) قائلاً:

ليس التعذيب بحادث عفوي، أو خطأ. ولا يمكن فهم الاستعمار من غير التعذيب، والاعتصاب، والقتل. فالتعذيب نموذج من العلاقات بين مستعمر ومستعمر.... بحيث يبدأ بمشهد عمومي: قتل الأب أمام أبنائه، أو تجريده من اللباس مع أبنائه وبناته وتعذيبه على مرأى منهم في منطقة أعضائه التناسلية. (Mbembe, 2007, pp37-51).

الأمثلة لا تعد ولا تحصى. وعلى لسان "فانون" تروي صحيفة سويدية (كريستينا ليلسترن) وهي تتحدث عن مأساة الشعب الجزائري: «صبيًا في السابعة من العمر موسوما بجروح عميقة حدثت نتيجة ربطه بسلك فولاذي، بينما كان الجنود الفرنسيون يذّلون ويقتلون أقاربه وأخواته. في حين وقف ضابط يمسك له عينيه بالقوة حتى تدفق منها الدم».

في رأي "فانون" التعذيب لا يمكن فصله عن التمييز العنصري، فهما شيان متلازمان. ويصفه بالوسيلة التي يستخدمها المستعمر للحصول على عناصر جديدة في صفوفه.

يؤكد كذلك على وصية جنرالات فرنسا (Salan: محرّك المنظّمة الإرهابية OAS) اعتماد مواطن سرّية للتعذيب، بحيث يجلب إليها كل المختطفين والثوار الذين ألقى عليهم القبض، ويتم اعتماد غسل أدمغتهم تحت التعذيب النفسي والجسمي بهدف استخدامهم لمآرب أخرى. (إن لم يقتلوا). (p,14,1970).

في هذا السياق، يذكّرنا فانون بالميكانيزمات النفسية. لا يجب أن تغطي الواقع المأساوي، من فقر واستغلال، واضطهاد بالتعذيب وآثاره السيكولوجية (نفسية، فيزيولوجية، اجتماعية) التي يتحملها المواطن. في حقيقة الأمر لقد وضع في الإطار الأول القائم بالتمييز العنصري، ومن يتحمّل هذا التمييز؛ القائم بالعنف والضحية، أو (المستعمر) و(المستعمر). (2006, pp 38-41).

نعم تعددت أنواع التعذيب التي تفنّن فيها المستعمر، وهنا يستوقفنا فانون عند أهم هذه الأشكال والتي لا تعد ولا تحصى. للتذكير أنّ أنواع التعذيب هذه سواء كانت نفسية أو جسمية، مسلّطة على الأبرياء أو الذين ارتكبوا فعلا محسوب جرما في نظر المستعمرين.

يشير "فانون" كذلك إلى "أعمال التسخير" والأعمال الشاقة والمتمثلة في التحميل (حمالون للحطب أو غيره..)، حتى أنه من كثرة هذا التسخير، دخل في السياق اللغوي العام على أنه "تعذيب".

ومن أنواع التعذيب النفسية، نجد تعريض المعذب إلى تجريده من الثياب وكشف العورة أمام أهله أو أمام سكان البلدة، أو اغتصاب النساء... السلوك الذي من خلاله يريد المستعمر ترميغ وجههم. السلوك الذي من ورائه يريد إقامة رجولة المستعمر على حساب الضحايا (هنا إنك امرأة ونحن الرجال)⁽¹⁾ وزرع الكره والاكْتئاب لدى المواطنين. (Bozarslan, 2008, pp 171-179).

وهناك أعمال التخريب، والجرح، والقتل، والجرائم، وهناك التظاهرات التي تظهر القوة تجاه المستعمرين التي بدورها تصوّرهم كمواضيع وليس كبشر. ويعبر عنها "فانون" بالصيغة التالية: «الاستعمار ليس آلة تفكير وليس بجسم يحتدم إلى العقل. إنه العنف في صفته الطبيعية ولا يمكن أن يرضخ إلا أمام عنف أكبر». ويضيف: «لا تظهر حياة المستعمر إلا من خلال جثة متعفنة». (Frantz Fanon, Les Damnés de la terre, p240) لقد خلق الاستعمار إشكالية الهوية لدى المستعمرين. ليصل المرء إلى استفهات عدّة من بينها: من أكون؟ حينها يكفي فقط، كما يقول فانون: "دراسة وتقدير عدد ومدى عمق الجروح التي لحقت بالمستعمر خلال يوم واحد مضى على يد الاستعمار لفهم حجم الأعراض العقلية الناتجة عن القمع".

لم يمس الفساد والقمع فقط الأفراد بل تعدى أيضا إلى الثروات وكل ما تملكه الدولة وأصحاب الأرض الشرعيين. ويتّضح هذا في الحرق المتعمّد لكل الوثائق المكتوبة، والسجلات الإدارية والرسمية التي من شأنها تجسّد الكيان الجزائري قبل ولوج الاستعمار. أو على حدّ قول Alexis de Tocqueville. لقد قام المستعمر بنهب ثروات الجزائر الثابتة، والمتجدّدة، وهدّم العديد من الآثار الإسلامية، وأقام محلّها ما يلائم

(1) - اتّخاذ من الديك رمزا غير عفوي. في اعتقادهم الديك الراكب، والآخر المراكوب (الدجاج).

ثقافتهم، وغير أسماء الشوارع، والإقامات، وامتدت يده حتى إلى تغيير الأسماء العربية الإسلامية للأفراد بمسميات مشوهة، ومنبوذة بهدف عزلهم أو دمجهم كطبقة من الدرجة ما دون الأولى... (Mbembe,2007, pp39-45) وهو هذا الفعل يريد البقاء إلى الأبد.

يريد المستعمر إذن التهديم، القطع، وزرع الخوف والغضب. ثم يريد علاج ما تمّ جرحه أو تكسيه... لغسل أدمغة الشعب أو لإشعارهم بالدونية والنقص. فبالنسبة لـ "لاكان (Lacan)" الشعور بالدونية شعور يغذيه الاستعمار لدى المستعمر.

في هذا الصدد يطرح "فانون" أهم الحالات المرضية، والعيادية التي خلفها هذا النوع من الاحتلال:

- عدم قدرة الجزائري على تحمّل اغتصاب زوجته.
- نزوات إجرامية مختلفة لدى الناجي من التصفيات الجماعية.
- ذهان القلق مع الشعور بالاضطهاد الليلي.
- الاكتئاب.
- ظهور علامات العنف والتعذيب في ضرب بعض الجنود الفرنسيين لعائلاتهم.
- انتشار ذهان ما بعد الولادة لدى النساء. (2006)

من خلال كتابات فانون عن الشعب الجزائري إبان الفترة الاستعمارية تكلمت أ. شرقي عن الكوارث، والشعور بالكره. وتكلم O. Douville عن العملية الاستعمارية الاكتئابية. وتطرّق J. Furtos إلى الانشطار الناتج عن الصدمات. (Doray,2006,pp 125-136)

على العموم، يهدف المستعمر من وراء قيامه بالتعذيب إلى عزل الأفراد عن مواطنهم الأصلية، وعن عائلاتهم، ووضعهم في محتشات وتسليط عليهم كل أنواع التعذيب لمحاولة كسر شوكة المواطنين، والثوار، ولمحاولة كسر كذلك انتسابهم ونسبهم الأصلي. (2008) أو بالأحرى تغيير هويتهم.

4 - 1 - سيكولوجية المستعمر

الاستعمار مستدمر بطبعه. لقد وصف "سيزار" (Césaire, 1955, p. 7) الحضارة المسماة "أوروبية"، والحضارة "الغربية" عموماً، بأنها عاجزة عن حلّ إشكاليّتين أساسيتين منذ وجودهما: إشكالية الطبقة الكادحة، والإشكالية الاستعمارية. ويعلّق فانون عن شيء آخر فهمه المستعمر كما أراد فهمه، ألا وهو علاقة الأفراد بالمادة، والعالم، والتاريخ في الفترة الاستعمارية. أمّا بالنسبة للمستعمر، العيش ليس بتجسيد القيم والانضمام في نمو منسجم وفعال، بل العيش يكمن في «التحكم في الحياة». وفي حقيقة الأمر لقد وصل الشعب الجزائري تحت تأثير الاستغلال المفرط إلى التحكم في الحياة، بل إلى «التحكم في الموت». هذا الخروج من وحل الظلام أسماه "فانون" بـ: «الحرية، والولادة من جديد، وإعادة البعث، والبديل، أو الظهور، والاضطراب المطلق أو المشي قدما ليل نهار، ورجل واقف، أو إيجاد شيء آخر، أو الفرد المبهم، أو الانحراف المقاوم للقانون، وللتقسيم، وللجرح». أو بالأحرى أصبح رجلاً أكثر من جسم. (Mbembe, 2007, pp49-53).

إذا نظرنا إلى مناهج المستعمر المطبقة على الشعب من تعذيب، وقهر، وتهميش، وحرمان، وعلى الأرض، والحرث من استغلال للثروات. هوناتج عن هومات المستعمر التي تركز على محورين: تعديل الحاجيات وحجم الرغبات. هذا ما يفرض أن يكون الموضوع نفسياً أرمزياً. الشيء الذي يجعل المستعمر يعير اهتماماً للمادة فيلّوح إلى سياسة التجويع (الحرمان) كوسيلة نفسية للتعذيب.

لم يعتمد المستعمر سياسة الحرمان لوحدها بل أوجد ما أسماه سياسة الإشباع (الرغبات) التي طبّقها. الإيحاء فيها أنّه لا حدود للغنى والملكية. هذه الفكرة الخيالية الاستعمارية والتي تشكّل سرّ سيكولوجية الاستعمار، لا تقصي إخضاع أو استعباد الفرد بواسطة رغباته. على أية حال، هذا النوع من الاستعباد هو الذي وضع المستعمر "خارج الذات" تائها وراء صوره الاستعمارية. (2007).

ويشير Albert Memmi كذلك بأنّ «المستعمر هو تشويه اجتماعي وتاريخي»، يواجه لغة المستعمر وقد يتبنّاها رغماً عنه لأنّها تواجهه في الإدارة وفي الطرقات حتّى (إشارات

المرور والمحلات)، إذن يصبح المواطن الأصيل غريبا في موطنه. إنه يعيش مأساة لسانية بسبب فرض لغة لم يختارها بنفسه.

نقطة أخرى في نفسية المستعمر تكمن في الميز العنصري، يسميه فانون بـ: «القلق الجنسي» وأحيانا أخرى بـ «الغيرة الجنسية». فمن الوجهة التحليلية يوضح «فانون» الشعور بالوضعية العنصرية بواسطة شعور خاص، فلا بد من إعطاء أهمية كبيرة إلى الظواهر الجنسية... إنه يعبر عن قلق الخضاء (ما يترجم هشاشة الرجولة)». (2007)

يذكر «فانون» في كتابه: «المعذبون في الأرض»، دوام واستمرار عادات لدى المستعمر لا تكاد تعبر عن احترام التقاليد بقدر ما تعبر عن «رفض للخضوع». يضيف ما تضيفه Diane Fuss: «ارتداء المرأة الجزائرية للحجاب» (الملاية أولعجار). ويشير كذلك من خلال كتابه «L'Algérie se dévoile»: «من ترتدي الحجاب تصبح هي في حد ذاتها حجابا». أي أنها تريد أن تتحكم في عدم اغتصابها الثقافي قبل الجسمي. فالأمة قائمة على حد تعبير فانون من خلال هذه الإزاحة التي أقامتها المرأة الجزائرية لتمثل بذلك الهوية الوطنية السائدة. وهذا ما يفسر؛ بعد ما تغتصب الأرض تغتصب بعدها الهوية. لقد فرض المستعمر كل شيء على الشعب الجزائري؛ الفقر، صعوبة المعيشة، وهويته الأوروبية (اللغة...). لكن بالرغم من ذلك كانت ديناميكية تاريخية قائمة بذاتها والتي لعبها حجاب المرأة. في رأينا كان يميز بين الجنسين وكان قد ساعد على الكفاح والثورة.

انتقل المستعمر كذلك إلى تشييط الرجال بواسطة العزلة والوحدة، والنظرات العدائية، والأحكام المهينة، ناهيك عن الاكتئاب الذي يعيشه الفرد الجزائري بفعل مصادرة اللغة، والتعرض للعنف المصدّر عبر الأجيال، ومدى شعوره بالرفض، والنفور، والتعرض للصدمات المتكررة... كل هذا يضع المستعمر موضع السكوت والإنكار للواقع والوجود. (2007, pp 240-287)

يخصص فانون هنا العلاقة البنوية بين التاريخ، والسلطة، والنفس. لقد فهم الجانب العيادي الذي هو تخصص مساره. أي علاج الألم النفسي الذي لا يصبح ممكنا إلا إذا أخذنا

بعين الاعتبار التاريخ والحاجة إلى الفداء بالنسبة للمعدّيين والمنهزمين. بمعنى آخر، لا يمكن ذلك إلا إذا كان العلاج قادرا على تسيير جدلية الفرد والمجتمع بين الذاكرة والنسيان، ومواجهة إنكار الماضي الذي يغطي التمييز بين مجتمعاتنا والمجتمعات الآتية من هناك. (2007, pp 19-20).

على العموم يؤكّد فانون تشابه الميكانيزمات الدفاعية النفسية في وضعيات التهميش، والاستغلال، والاستعمار، والتمييز العنصري، وكذلك بين العلاقة طيب عقي-مريض. لأنّ الموضوع المشترك هنا هو موضوع التعرّف على الذات المدرج في دينامية التكوين المعقّد لهوية الذات، والذي يختلف عن موضوع التعرّف على الآخر. تحوّل هذا الفرق إلى علاقة غير متساوية وغير متناسبة، هي علاقة التبعية وسلب الحرية كسياق يكسب الفرد الشعور بالاغتراب. (Goussot,2012).

حاول "فانون" التحليل من خلال الوسائل الإثنولوجية والتحليلية للعلاقات التبعية الناتجة عن الوضعية الاستعمارية ناهيك عن الهوامات التي يسندها المستعمر على السكان الأهالي (كما يسميهم). أو كما تسميهم Mannoni عند المواجهة بين المستعمر والمستعمر. فينتج هذا الأخير عقدة التبعية، أمّا بالنسبة للأول تكون لديه عقدة التفوق والإعلاء التي تؤدي به إلى السيطرة. وأسندت ذلك إلى كون هذه العقد خاصة ثقافية يتميّز بها كل مجتمع، إضافة إلى تفسيرها للصراع القائم بين المعتدي والمعتدى عليه بالصراع المرضي. بمعنى، يحاول المستعمر دائما الاستدلال العلمي من خلال النظريات العنصرية المثبّطة للمساواة وانعدام القمع، وعلى أنّ عقدة النقص لدى المستعمر ليست وليدة الاستعمار بل جذورها موجودة منذ الأزل. (2012).

انتقدها فانون حيث فسّر التمييز العنصري المسلط من قبل المستعمر لزرع التفرقة بين الثقافات، وخلق الطوائف، والقبائل، وتعقيد الاتصال بينها، أو كما يسميه بـ "منطق الأبرتايد". وأنّ الاستعمار لا يترك للمواطنين الأصليين سوى فرصتين: "الشعور بالنقص أو الحرّية".

ما فهمه فانون في العمل العيادي، بأن المريض ليس فقط جملة من الأعراض، بل كذلك شخص يعيش وضعية نوعية. والمستعمر ليس فقط المسيطر بل يعتبر أيضا ناتج عن علاقة سيطرة تمّ استدخلها. من هنا ربط فانون التحليل السيسوساجتماعي، والثقافي، والطبي لتفسير ميكانيزمات تشكيل الكراهية والعدائية، مع أخذه بعين الاعتبار الفروقات بين الأفراد والثقافات. أو بالأحرى يحاول البحث عن أهم الميكانيزمات التي تسبّب في الشعور بالنقص لدى المستعمر، الرجل الأسود والمغترب.

وكأنه يريد القول بأنّ استدخال نظرة المستعمر أو الرجل الأبيض يسبّب في هذه العقد كحل لاشعوري، ومع دوام تكراره يصبح مرضيا أولينتقل المعتدى عليه إلى تقمص المعتدي (أنظر النظريات التحليلية النفسية). ففي هذه الحالة يصبح المستعمر في وضعية اتصالية مزدوجة، أو كما يسميها Gregory Bateson (le double lien).

باختصار، أراد فانون التطرق إلى ميكانيزمات تشكيل الهوية، وعلاقات الأنساق الاجتماعية، وكيفية تمثّلها بدل الحديث عن المستعمر المطلق. ولوأنّه ألح على ما أسماه بـ: "المأساة النرجسية" التي تترجم انغلاق كل من المستعمر والمستعمر في قوقعتهما. ربّما نوّه فانون بهذه العلاقة واستمدّها من تجاربه العلاجية التي أوجد لها نفس العلاقة التي تسيّر الطبيب بالمرض. (2012)

4 - 2. الانحراف والشذوذ الاستعماري

كانت أوجه العذاب والتعذيب، والقتل عنوان الاستعمار. وما أحداث 8 ماي 1945 إلّا شاهد على استبداد وهمجية، وتعنت المستعمر تجاه شعب أعزل مجرّد من السلاح. في هذا الصدد يشير فانون إلى وجود أحكام مسبقة لدى المستعمر، ومنهجه التفكيري منهج منحرف وشاذ (pervers). لأنّه لا ينظر إلّا بالنظرة البوليسية، يرتكز على وصم الآخر وإعلاء الذات.

فالاستعمار على حدّ وصف فانون ليس مالك فقط للفضاء والمكان (الجغرافيا)، لكنّه يريد أن يكون سيّد الزمن التاريخي الرهيب حيث في كلّ فترات كيانه على أرض الجزائر جمع بين القهر الاقتصادي والموت.

في أحد كتابات A. Cloots عن إنسانية القواعد التشريعية الفرنسية، بحيث لا يذكر هذا الكاتب أو غيره أحقية الشعوب المحتلة، والتي واجهت المستعمر الفرنسي بالسلاح لكي تعيش إنسانيتها. لقد جاء قانون بمفهوم الحق في العالم الاستعماري، وماهية هذا الاستعمار الذي بواطنه مملوءة بالعنصرية. على إثر ذلك حاول طرح مفهوم الإنسانية. هذا المفهوم الذي لم يأت من فراغ لدى "قانون"، المتطلع على خصائص الأمكنة التي ترعرع، وتكون، وعمل بها، سيتسنى له فهم كتابات قانون حول الأمراض العقلية والاجتماعية، والقضايا التحريرية، وانتقاداته للسياسة الاستعمارية المطبقة على الشعوب لاسيما الشعب الجزائري.

مثلا، لم يرخص قانون على طريقة تعامل عمال المصحات العقلية مع المرضى لأتهم لعبوا دور الحراس وليس لتقديم خدمات. لم يكن متسامحا مع كل من يتصرف مع المرضى على أنهم مواضيع وليسوا بأفراد.

لاحظ أيضا التمييز وعدم تكافؤ الفرص في العلاج بين المرضى. الدواء واكتمال العلاج للمرضى من أصول فرنسية، عكس ما يحدث للمرضى الجزائريين، وحبّة القائمون على التكفل هؤلاء أنهم يرفضون العلاج. (Ladsous, 2006, p51) كتابه المعنون: « Peau noire, masques blancs » يصف فيه الشذوذ العنصري بمعدلات مختلفة. لاسيما العنصرية المطبقة أيضا تجاه المرضى أو المثقفين الجزائريين.

كلها أسباب نراها من جهة مثيرة للإكتئاب وفقدان الأمل، بل كذلك تجعل الفرد المستعمر يخبئ ويكتشف ذاته وصورة ذاته ومعنى الحياة والموت لديه.

5- الموت والتحرر

بالنسبة ل قانون، قانون الحرية الذي سنّه الجزائري ضد الاستعمار هو الانتقال إلى نظرية «الجزائري الأمل المطلق» بعدما كان مستسلما إلى نظرية «الاستعمار الأمل المطلق». (Haddad,2014) لقد اكتشف قانون الانسجام والثبات الأخلاقي والارتباط بالأمة، والسخاء، والاستعداد للتضحية (في سبيل الحرية) لدى سكان الأرياف والفلاحين (Renault,2009).

يقول فانون: "إنّ التحرّر يبني كلّ نواحي الشخصية. والاشتبك، والتعذيب أو القتل المسلّط على الإخوة يجدرّ قناعة الانتصار ويحيي اللاشعور، والضمير، ويغذي الخيال، أي أنّ كلّ المحن التي يعيشها الشعب الجزائري ما هي إلاّ دلالة على بداية النهاية. ويصف الحرّية بأنّها ليست كلمة ندعوها فتأتي، وإنّما هي شرط ضروري لوجود الرجال والنساء الأحرار. (2006, pp 27-29).

على حدّ تعبير فانون، ما يمكن ملاحظته أنّ اللاشخصانية التي يعانيها المرضى والمعذبون في الأرض، هي تجربة الموت أو بالأحرى هي حياة «الميت الحي»، لأنّ الموت متكرّر، بل إنّ التناذر الذي طغى على حياة الجزائريين إبان الاحتلال الفرنسي. ويحدّده فانون في قوله: «الموت يومي؛ موت في القطار، في الفحص،...، في الورشة، موت في السينما، موت متعدّد في الجرائد، موت من الخوف من كلّ هؤلاء المعمرين، إنّ الموت». (2006, pp 27-29).

وصل إلى أنّ الموت داخل الحياة هو ميكانيزم دفاعي يستخدمه كل فرد يشعر بالحرمان من كلّ حقوقه المعنوية والمادية... لقد وصل الشعب الجزائري إلى عدم الخوف من الموت المادي. أصبح الشيء الذي يهدّد حياته هو الشعور بعدم القدرة على مواجهة قتل العدو.

للإشارة أنّ الأطباء الفرنسيون كانوا على علم بذلك؛ الجزائر المكتتبة المحرومة من كلّ شيء لا تنتحر بل تقتل، وهي المعادلة التي عكست ما هو متداول (يؤدي الاكئاب الشديد إلى الانتحار). لأنّه وبكلّ بساطة استدخل الفرد الجزائري لا شعوريا معنى الحرمان، الذي طبّقه المستعمر بهدف سنّ الاغتيال من غير سلاح، على أنّه انتصار على الموت ليس أكثر. (Laing, cité par Ladsous, 2006).

لقد حاول فانون عدم التفريق بين الكفّاح العنيف لأجل الحياة، والكفّاح السياسي لأجل الإنسانية، على عكس ما فعل "سارتر" Sartre. لأنّه في ظلّ الاستعمار يعدّ كل عمل يرتكز على العنف والموت امتحان الحياة. لأنّه مقابل للشيء نفسه الذي يجعل المستعمر موجودا. (2006)

فالعنف الذي سُلط على الشعب الجزائري لم يكن نابعا عن النزوات الفردية. بل كان عنفا نسقيا نابعا عن السلطة القهرية الرأسمالية. والأنظمة الرأسمالية كما نعلم [لا دين لها]، وسائلها قمعية استغلالية تعتمد على تسخير الأفراد في الأعمال الشاقة وفي العبودية، وهي نفس الوسائل التي اعتمدها فرنسا لمجابهة الشعب الجزائري للظفر بثروات وخيرات البلاد. فمن هنا يستمد المستعمر قوّته لیسلّطها في التعذيب وفي الإبادة. (Doray, 2006, pp 126-136) واحتياجا، وحرمانا حقيقيا للإرث البشري والرمزي. (Douville, 2006, b).

يشير فانون إلى أنّ العنف خلّص الشعب من شعوره بالنقص، ومن فقدانه للأمل، لأنّه يرى المحتلّ مثله تماما غير مختلف عنه - عكس ما يراه المحتلّ عن الجزائري بأنّه مختلف عنه تماما. وجعله مقداما بالنسبة إلى ذاته (2006). (ولوأنّه انتقد من الموالين للاستعمار).

ما يمكن استخلاصه أنّ الحرية حق، والحق هوامي عندما يطلب، ويصبح واقعا عندما يؤخذ أو كما جيء به على لسان فرويد Freud في ردّه على رسالة إينشتاين Einstein (لماذا الحرب) سنة 1932. فعبقرية تلك الثورة من عبقرية الفكر والشعور الجزائري. والتعذيب الذي انتهجه المستعمر، انقلب عليه.

خاتمة :

إنّ سيرة فانون الذاتية مزجت ما بين الثقافات؛ مكان الولادة، واللغة التي درس بها، مكان الدراسات العليا، ومزج بين مختلف العلوم؛ الطب، الطبّ العقلي، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والسياسة الإفريقية والجزائرية. يمكن القول بأنّه مفكّر ملتزم بجانب المكتئبين والمقمعين. لقد اقترح مفهوما للهوية الثقافية سيما ما تعلق بالعمل العلاجي في سياق الاستعمار والسيطرة.

كافح فانون ضدّ الإيديولوجية العنصرية الناتجة عن الاستعمار خصوصا لدى المرضى العقلين على مستوى العزل السيكاتري. (2012, pp 90-101) ففي السطور الأخيرة من كتاب: "المعدّبون في الأرض" يدعو إلى عدم تقليد أوروبا كلّها بصفة كاريكاتورية.

يدعوفانون إلى عدم تقليد ما ينسبنا هويتنا التي استعمرنا بسببها أونصبح شعبا قابلا للاستعمار (مالك بن نبي).

يبقى فكر فانون مهمًا، ليس فقط فيما يرشدنا إلى كراهية المستعمر للغة أوللفرد الجزائري، أو إلى الأكاذيب، والتفكك، والازدواجية التي طرحها العدوبين الشعب الواحد. لكن منذ أن عرف الشخص الجزائري تحوُّلاً على مستوى نفسيته المضطهدة، عرفت الثورة البزوغ والقوة، وعرفته بأنه مثلما يوجد من يزيح عن ذاتيته فعل التعذيب، يوجد من هو أشد من ذلك. أي من يتلذذ بالتعذيب، ولا يحتاج لتبرير فعله.

في هذا الصدد، بأنّ التعذيب كان في كلّ مكان. فالشعب الجزائري قد واجه شخصية محتلّ مرضية وشاذة "إجراميا". وأشير هنا إلى أنّ هذا النوع من الشخصيات الجلّادة، لا تشف، ولا يؤنبها ضميرها لما قامت به من تعذيب، بل تستمر في فعلها. وما نشاهده اليوم، عندما طلبت الجزائر تعويضات عن جرائم التعذيب والقتل، جوبهت بتعنت، وبارانويا نمطية من شأنها تلوّح إلى حنين مرضي، وسلوك تعديبي مرّة أخرى عندما كانت استجابتها بالرفض. ونعتقد بأنّه وجدها فرصة لعدم المساعدة على عمل الحداد، ولتكسير عزيمة، وإرادة، وتماسك هوية المجتمع. أعتقد بأنّه كان من الأجدر ألاّ نطالب، بل نأخذ. وحتما الأخذ لا يحقق أهدافه في غياب القوة. فالمعتدى عندما يرى هذه السمة في الضحية، سيزيح الفشل على ذاته. نرجو ألاّ تعطى الفرص للجلاد. ونؤكّد بأنّ الفهم يقينا من السقوط في الانهيار.

وفي نفس السياق، ينبّه فانون إلى أنّ الاستعمار يتغذى بالنزعات التفريقية بين أفراد المجتمع الواحد. ينبّه إلى حالة أمم ما بعد الاستعمار (عوض بعد الاستقلال). أنّها تبقى كذلك بفعل تناقضات النخب، والطبقات السياسية. (184-180 pp, 2012).

فلا بد للجزائر أن تفتح ذراعيها لجميع العبقريات. وتتحاشى النزاع على الحكم، لتحبي المنافسة على الإبداع، والازدهار لتحصّن نفسها أمام الطامعين.

قائمة المصادر والمراجع

- AIME, C.-N. (2006). L'actualité de Frantz Fanon, psychiatre martiniquais. *VST - Vie sociale et traitements*, 1(89), 37-42. Repéré à <http://www.cairn.info/revue-vie-sociale-et-traitements-2006-1-page-37.htm>
- BENEDECCE, R. (2012). La vie psychique. Fanon et le temps fracturé de la mémoire. *L'Autre*, 13(3), 273-284. Repéré à <http://www.cairn.info/revue-l-autre-2012-3-page-273.htm>
- BOZARSLAN, H. (2008). *Torture and the Twilight of Empire: From Algiers to Baghdad Princeton* (Vol. XII). N. J./ Oxford : Princeton University Press.
- DORAY, B. (2006). A propos de l'actualité de Frantz Fanon. *Sud/Nord*, 1(21), 125-136. Repéré à <http://www.cairn.info/revue-sud-nord-2006-1-page-125.htm>
- DOUVILLE, O. (2006a). Approche clinique du sujet. *VST - Vie sociale et traitements*, 1(89), 38-64. Repéré à <http://www.cairn.info/revue-vie-sociale-et-traitements-2006-1-page-43.htm>
- DOUVILLE, O. (2006b). Y a-t-il une actualité clinique de Fanon? *L'évolution psychiatrique*, 71, 697-715.
- GOUSSOT, A. (2012). Frantz Fanon et la rencontre avec l'autre□: pour une psychologie transculturelle de la libération. *L'Autre*, 13(1), 95-101. Repéré à <http://www.cairn.info/revue-l-autre-2012-1-page-95.htm>
- HADDAD, M. (2014). La violence et l'histoire dans la pensée de Frantz Fanon. *Sud/Nord*, 1(22), 79-87. Repéré à : <http://www.cairn.info/revue-sud-nord-2007-1-page-79.htm>
- LADSOUS, J. (2006). Fanon□: du soin à l'affranchissement. *VST - Vie sociale et traitements*, 1(89), 25-29. Repéré à <http://www.cairn.info/revue-vie-sociale-et-traitements-2006-1-page-25.htm>

- MBEMBE, A. (2007). De la scène coloniale chez Frantz Fanon. *Collège international de Philosophie*, 4(58), 37-55. Repéré à <http://www.cairn.info/revue-rue-descartes-2007-4-page-37.htm>
- RENAULT, M. (2009). Vie et mort dans la pensée de Frantz Fanon. *Cahiers Sens public*, 2(10), 133-145. Repéré à <http://www.cairn.info/revue-cahiers-sens-public-2009-2-page-133.htm>
- سيزار، إ. (2016) خطاب حول الاستعمار، ترجمة ع.ق. بهتان، قائلة: جامعة 8 ماي 1945، قائلة.
- فانون، ف (1970) سوسيولوجية الثورة، (ط 1). بيروت: دار الطباعة والنشر.

